توظيف اللّون في المساجلات الشعرية في العهد النبوي

د. أحمد كرامة سالم مصيباح
أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، كليّة الآداب
جامعة سيئون

الملخص:

استهدف البحث تتبع توظيف اللون في المساجلات الشعرية بين الصحابة والمشركين في العهد النبوي، وكيف وظّف كل من الفريقين الألوان في معرض مهاجاته للآخر وإظهار قوته وضعف خصمه. تناول البحث كيفيّة استعمال شعراء الصحابة والمشركين للألوان في شعرهم، ومدى بروز الألوان في أغراضهم الشعريّة، وكيف تباينت درجات اللون باختلاف الموطن أو الشيء الملوّن، ومعرفة أثر القرآن في الصورة اللونيّة في شعر الصحابة، حيث تفاوت استعمال شعراء المسلمين والمشركين للألوان، فيكثر منه هؤلاء في غرض ويقل عند شعراء الطرف الثاني، فحين أكثر الصحابة من اللون الأبيض في مدحهم للنبي ﷺ وأصحابهﷺ ، ووظّفوه في وصفهم للعتاد الحربي، كان توظيف المشركين للون الأبيض أكثر في رثاء قتلاهم، كما أبدعوا فيه في وصف عتادهم، وظهر اللون الأسود في وصف الصحابة حالتهم في الجاهليّة، ونعت عدّة حربهم، ووصف عنف الحرب وشدّتها، وقد شاركهم المشركون في كل هذه الأغراض وأبدعوا فيها، ووظّفوا غيرهما من الألوان كالأخضر والأحمر وغيرها توظيفًا جماليًا يتّسق مع المعطيات الجماليّة الأخرى.

الكلمات المفتاحية:

- الأبيض
- الصحابة
- المدح
- المشركون
- اللّون

ABSTRACT:

This paper aims to follow-up the meaning of colors in the poetry debate between the Companions of the Prophet and polytheists during the Prophet's period, a period that was bright in the history of our Islamic nation. It is a study that seeks to get benefit from the data of the methodological lesson to discover the phenomenon of colors and the connotations of deep indications.

The paper deals with how the Prophet's Companions poets and polytheists used colors in their poetry, the extent of the colors appearing in their poetic purposes, how the colors' shades varied depending on the habitat or the colored object, and how the Holy Quran affected the color image in their poetry. The white color had a wide presence and was used as an inspiration and manifestation. It mostly appeared in their praise of Prophet Muhammed (peace be upon him) and his companions, their lamentations, and they employed it in their war equipment.

The polytheists also shared this in their purposes and were creative. On the other hand, the black color appeared in describing their situation in the pre-Islamic era, described their war tools, described the war violence and its intensity. They also aesthetically employed other colors such as green and red complying with other aesthetic facts.

Key Words:

- **color.**
- **Companions**
- **Polytheist**
- **Praise**
- **White**

مُقدَّمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين؛ أما بعد فإنه لما بزغ نور البعثة المحمدية على هذه المعمورة برز الصراع بين الحق والباطل، وكان المسلمون في العهد المكي مستضعفين، فلما آذن الله بالهجرة، وكان للمسلمين كيان مستقل ودولة، ونشبت الحرب بين المسلمين والمشركين، ظهر لكل فريق شعراء يدافعون عن مبادئه ويهجو الطرف الآخر ويبين عجزه ويستشفي بهزيمته، وكان لهذه المساجلات الشعرية صدى في قبائل العرب، ولها تأثير على كفة هذا الصراع لا يقل عن تأثير القتال، فمن أبرز شعراء المسلمين في هذه المساجلات: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وكلهم من الأنصار، وانبرى لهؤلاء عدد من شعراء الشركين مثل: عبد الله بن الزبعرى، وضرار بن الخطاب، وغيرهم.

وبالرغم من أن شعر المساجلات والنقائض يكون ارتجاليًا في الغالب، إلا أن شعراء الطرفين أجادوا فيه، فأبدعوا في صورهم الفنية، كما نوعوا في جماليات البلاغة من بيان وبديع ومعان، ومن ذلك ظاهرة الألوان في الشعر، فقد تجلّت معالمها بوضوح وتحددت أبعادها، واستعملوا الألوان استعمالًا موفقًا، ووزعوها توزيعًا سليمًا؛ لما لها من أثر في الفن وجماله، ولما تبوح به من الدلالات العميقة، فالألوان مظهر من مظاهر الجمال الذي بثّه الله في الكون الواسع، وله تأثير عجيب في النفس الإنسانية إيجابًا أو سلبًا، حتى لقد دخل في علاج بعض الأمراض النفسية.

ومن المعلوم أنّ الظاهرة التلوينية تعد جزءًا مهمًا في تشكيل الصورة الشعرية، ومن أبرز عناصر التشكيل المرئي؛ فالأديب يستثمر الألوان لخلق التوازن والتناسب، والوحدة والانسجام، التي هي من أهم مباني علم الجمال.

وتكمن مشكلة البحث في كيفية استعمال شعراء الصحابة والمشركين في مساجلاتهم في العهد النبوي للألوان، ومدى بروز الألوان في أغراضهم الشعرية، وكيف تباينت درجات اللون باختلاف الموطن أو الشيء الملوّن، وكيف شاع اللون أو الحزمة اللونية في غرض معين لفريق وخَفَت عند الفريق الآخر.

لذا، سيتناول هذا البحث المساجلات الشعرية بين الصحابة ﷺ والمشركين في عهد النبي ﷺ في مختلف المواقع، ويشمل ما قيل في المعارك التي دارت في عهده، وما مُدح أو رُثي به من أصيب من الطرفين فيها، ويقتصر على ذلك لا يتعداه إلى غيره.

ولا شك أن المنهج المناسب لهذا البحث هو المنهج التحليلي الوصفي في قراءة شعر هذه المساجلات الشعرية، والتعمق في دلالاته الموضوعية، وبيان توظيف اللون في الصورة الشعرية، وأبعاد الألوان الفنية عند شعراء المسلمين والمشركين.

وتتجلى أهمية هذا البحث في أمور، منها:

1. بيان طرائق شعراء الصحابة ﷺ والمشركين في استعمالهم للألوان في شعرهم.
2. إبراز أثر القرآن الكريم في هذه الظاهرة.
3. تحديد ميول الشعراء في استعمال الألوان بما نكشف به نفسيّة الشاعر.

وقد قسّم البحث إلى أربعة مباحث تسبقها مقدمة، وتليها خاتمة بها أهم النتائج، المبحث الأول: مفهوم اللون، والمبحث الثاني: اللون الأبيض، والمبحث الثالث: اللون الأسود، والمبحث الرابع: اللون الأخضر والأحمر والأصفر والأزرق.

المبحث الأول: مفهوم اللون:

تدور مادة (لون) عند العرب على معاني السحنة، وهي الهيئة، والنوع والكيفية؛ فاللون هيئة كالسواد والحمرة، ويقولون: عنده لون من الثياب: أي صنف منها، ويقال تلوّن فلان: أي اختلفت أخلاقه[1].

ويعرّف اللون بأنه: الانطباع الذي يولّده النور على العين، فكلّ لون يتخذ قيمة معيّنة بالنسبة للبيئة التي تحيط به، وهذا التعريف يقع ضمن دائرة الوعي الاجتماعي لمدركات الأشياء، أما إدراك اللون فقد عُرِّف ((بأنّه أي فرق أو اختلاف يمكن ملاحظته بين جزأين موجودين في المجال البصري لا يُعزى إلى تباين في مكانهما أو زمانهما أو حدّتهما))[2].

ويعد اللون من الناحية الفيزيائية موجات ضوئية اهتزازيّة تدركها العين، وهذه الموجات تقصر أو تطول وفقًا لطول الموجة؛ ((فاللون مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالضوء، إذ إنّ إدراك اللون لا يتم بمعزل عن الضوء؛ وعند تحليل ضوء الشمس برزت ألوان الطيف الشمسي السبعة وهي: الأحمر، والبرتقالي، والأصفر، والأخضر، والأزرق، والنيلي (الكحلي)، والبنفسجي))[3].

وللألوان وظيفة جمالية حيث إنها تبرز الفكرة، ، وتوقظ الحس الشعوري، وتعمق المعنى، وتجذب المتلقّي لما لها من دور في تنبيه الحواس، والتأثير بالتشويق أو التنفير، بل ((تعد الألوان قلائد يتوشّح بها الجمال، ولا يختلف اثنان حول جماليّات الألوان، فربما يختلف الناس في تفضيلهم لهذا اللون وكراهيتهم لآخر، ولكنهم جميعًا متفقون على أن الحياة تكون أجمل وأبهى عندما تكون ملوّنة))[4].

وعند تأمل الألوان في الشعر من العاصر الجاهلي نجد أن " الشعراء أحبوا السواد عندما يكون لونًا للعين، أو الشعَر، وكرهوه في البشرة، وفضلوا المطايا البيضاء في العطية والسفر، في حين اختاروا السود منها للصيد والحروب، كما يرمز الأسود للموت والخراب"[5].

" فالشاعر الجاهلي كلف بالألوان، وأكثر الألوان وروداً هو اللون الأبيض ثم الأسود فالأخضر فالأحمر، ويحب الجاهلي مزج الألوان المتناقضة والمنسجمة"[6].

ولقد تباين استخدام الشعراء الإسلاميين والمشركين إبّان عهد النبوّة للألوان، وتفاوتت درجات اهتمامهم بها، واستثمروا دلالات الألوان: الأبيض، والأسود، والأخضر، والأحمر، والأصفر، والأزرق في نقائضهم ومساجلاتهم الشعرية، وإن كان اهتمامهم أكثر بالأبيض يليه الأسود، وكل ذلك رفع الشاعرية إلى مستوى الجمال.

المبحث الثاني: اللون الأبيض:

يُعَدُّ اللون الأبيض من الناحية العلمية أصل الألوان، بل هو كل الألوان مجتمعة[7]، وهو أكثر الألوان ورودًا في الشّعر القديم، مثلما كان أكثر الألوان ورودًا في القرآن الكريم حيث ورد فيه اثنتي عشرة مرة[8].

وقد شمل اللون الأبيض رقعة واسعة من مساحة الألوان، وتم استعمال هذه المفردة اللونية في المساجلات إيحاءً وتصريحًا، فاللون الأبيض يرد في وصفهم ومدحهم ورثائهم، وغزلهم.

المحور الأول: الوصف:

ارتبط اللون الأبيض بالسيوف الصقيلة اللامعة عند العرب حتى صار من أسمائها، حين نتأمل قصائد شعراء المشركين نجد أبداعًا في توظيفهم للون الأبيض حين وصفوا به عتادهم الحربي من سيوف ودروع ومغافر.

فشعراء المشركين لم يكتفوا بتسمية سيوفهم بالبيض ـ كعادة الشعراء ـ بل زادوه بياضًا حين شبهوا تلك الأسلحة بالملح الأبيض كقول ضرار بن الخطاب:

إِنّي وَجَـــــدّك لَا أَنْفَـــــك مُنْتَطِقًـــــا بِصَـــــارِمٍ مِثْـــلَ لَـــوْنِ الْمِلْـــحِ قَطّـــاع [9]

وقول ابن الزبعرى:

وَبِـــيضٍ كَـــأَنّ الْمِلْـــحَ فَـــوْقَ مُتُونِهَـــا بِأَيْـــدِي كُمَـــاةٍ كَـــاللّيُوثِ الْعَوَائِـــثِ [10]

وربما شبهوا سيوفهم بالغدير اللامع الأبيض والجمر كقول أَبُي أُسَامَةَ ، مُعَاوِيَةُ بْنُ زُهَيْرٍ:

بِبِـــــيضٍ كَالْأَسِـــــنّةِ مُرْهِفَـــــاتٍ كَـــــأَنّ ظُبَـــــاتِهِنّ جَحِـــــيمُ جَمْـــــرِ

وَأَبْـــيَضَ كَالْغَـــدِيرِ ثَـــوَى عَلَيْـــهِ عُمَيْـــرٌ بِالْمَـــدَاوِسِ نِصْـــفَ شَـــهْرِ [11]

أو شبهوا الدرع بالغدير وشبهوا المغفر الذي على رؤوس قتلى الأنصار بالقيض وهي قشرة البيض، وكل ذلك تأكيد على صفة البياض، كقول هُبَيْرَةَ بْنِ أَبِي وَهْبٍ:

هَـــذَا وَبَيْضَـــاءَ مِثْـــلَ النّهْـــيِ مُحْكَمَـــةٌ نِيطَـــتْ عَلَـــيّ فَمَـــا تَبْـــدُو مَسَـــاوِيهَا
كَـــأَنّ هَـــامَهُمْ عِنْـــدَ الْـــوَغَى فِلَـــقٌ مِـــنْ قَـــيْضِ رُبْـــدٍ نَفَتْـــهُ عَـــنْ أَدَاحِيهَـــا [12]

وأحيانًا يشبهون سيوفهم ببياض البرق اللامع، كقول ضرار بن الخطاب:

كَـــــأَنّ وَمِيضَـــــهُنّ مُعَرّيَـــــاتٍ إِذَا لَاحَـــــتْ بِأَيْـــــدِي مُصْـــــلِتِينَا
وَمِـــــيضُ عَقِيقَـــــةٍ لَمَعَـــــتْ بِلَيْـــــلٍ تَـــــرَى فِيهَـــــا الْعَقَـــــائِقَ مُسْـــــتَبِينَا [13]

وربما شبهوا لمعان سيوفهم وبياضها بالحريق كقول ابن الزبعرى:

وقـــد عريـــت بـــيضٌ كـــأنَّ وميضَـــها حريـــقٌ ترقـــى في الإبـــاءِ ســـريعُ [14]

وقد وظف شعراء الصحابة اللون الأبيض في وصفهم لعتادهم الحربي، فقد جعله حسان ﷺ صفة ولونًا بارزًا في الصحابة في غزوة بدر، إذ كانت وجوههم وجباههم تشرق بالبياض، كما جعله صفة لسيوفهم البيضاء اللامعة تحت ظلال النقع:

وَمُجَـــــدّلٍ لَا يَسْـــــتَجِيبُ لِـــــدَعْوَةٍ حَـــــتّى تَـــــزُولَ شَـــــوَامِخُ الْأَعْـــــلَامِ
بِالْعَـــــارِ وَالـــــذّلّ الْمُبَـــــيّنِ إِذْ رَأَى بِـــــيضَ السّـــــيُوفِ تَسُـــــوقُ كُـــــلّ هُمَـــــامِ
بِيَـــــدَيْ أَغَـــــرّ إِذَا انْتَمَـــــى لَمْ يُخْـــــزِهِ نَسَـــــبُ الْقِصَـــــارِ سَمَيْـــــدَعٍ مِقْـــــدَامِ
بِـــــيضٌ إِذَا لَاقَـــــتْ حَدِيـــــدًا صَـــــمّمَتْ كَـــــالْبَرْقِ تَحْـــــتَ ظِـــــلَالِ كُـــــلّ غَمَـــــامِ [15]

ونجد حسان بن ثابت ﷺ في وصفه لغزوة بني قريظة يصف سيوف الصحابة بالبياض أكثر من مرة، فيقول:

يَسْـــرُونَ بِـــالْبِيضِ الْخِفَـــافِ إِلَـــيْكُمْ مَرَحًـــا كَأُسْـــدٍ فِي عَـــرِينٍ مُغْـــرِفِ
حَـــتّى أَتَـــوْكُمْ فِي مَحِـــلّ بِلَادِكُـــمْ فَسَـــقَوْكُمْ حَتْفًـــا بِبِـــيضٍ ذُفّـــفِ [16]

كما نجد توظيف اللون الأبيض في مساجلات كعب بن مالكﷺ حيث صبغ به موصوفاته الحربية ليشمل بذلك كتيبتهم في غزوة أحد فيشبهها بلون النجوم البيضاء اللامعة لكثرة ما فيها من السلاح:

تَـــرَى لَوْنَهَـــا مِثْـــلَ لَـــوْنِ النّجُـــو مِ رَجْرَاجَـــةً تُـــبْرِقُ النّاظِرِينَـــا [17]

ثم أخذ يصبغ عتاد الكتائب بالأبيض ولا سيما الأسلحة[18]، فهو يجعل سيوف الصحابة بيضاء لامعة

كشعلة النار المتوهّجة، فيقول:

وَقَــدْ عُرِّيَــتْ بِــيضٌ خِفَــافٌ كَأَنّهَــا مَقَــابِيسُ يُزْهِيهَــا لِعَيْنَيْــكَ شَــاهِرُ[19]

وهكذا يستمر كعب بن مالك ﷺ في توظيف اللون الأبيض في وصف العتاد ليشمل وصفه لدروع الصحابة في الخندق، فقال:

فِي كُــلّ سَــابِغَةٍ تخــطُّ فضــولها كَــالنّهْيِ هَبّــتْ رِيحُــهُ الْمُتَرَقْــرِقِ

بيضــاءَ محكمــة كــأنَّ قَتِيرَهــا حَــدَقُ الجَنَــادِبِ ذاتِ شــكٍّ موثَــقِ[20]

المحور الثاني: المدح: وظّف شعراء الصحابة اللون الأبيض في معرض مدحهم لرسول الله وثنائهم على ما جاء به من الهدى والحق عليه السلام.

فقد استعمل كعب بن مالك اللون الأبيض في مدحه ووصفه للرسول الكريم ﷺ، ويغدق عليه من معاني البياض:

فِينَــا الرّسُــولُ شِــهَابٌ ثُمّ يَتْبَعُــهُ نُــورٌ مُضِــيءٌ لَــهُ فَضْــلٌ عَلَــى الشّــهُبِ

يَمْضِــي ويَــذْمُرنا عَــنْ غَــيْرِ مَعْصِــيَةٍ كَأَنّــهُ الْبَــدْرُ لَمْ يُطْبَــعْ عَلَــى الْكَــذِبِ[21]

ووصفه بالشهاب يدلّ على شدة البياض والضياء مع الإحراق للعدو، كما نلمح البياض في قوله "نور"، ولذلك علاقة باللون الأبيض كما قال الجاحظ: ((ولكل ضياء بياض ونور، وليس لكل بياض نور وضياء))[22]، ثم لم يكتف كعب بوصفه بالشهاب بل شبّهه بالبدر المكتمل زيادة في وصفه بالبياض، وهو في وصفه هذا نجده متأسيًّا بالقرآن الكريم، إذ وصفه الله بالسراج المنير في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾[الأحزاب: ٤٥ – ٤٦].

كما يبدع كعب بن مالك ﷺ في صوره الفنية حين يجعل البياض محاطًا بالسواد القاتم، وكما قيل (وبضدّها تتميز الأشياء)، ولذا يقول:

فَــإِنّي وَإِنْ عَنّفْتُمُــونِي لَقَائِــلٌ فِــدًى لِرَسُــولِ اللّــهِ أَهْلِــي وَمَالِيَــا

أَطَعْنَــاهُ لَمْ نَعْدِلْــهُ فِينَــا بِغَــيْرِهِ شِــهَابًا لَنَــا فِي ظُلْمَــةِ اللّيْــلِ هَادِيَــا[23]

وأما حسان بن ثابت ﷺ فقد وصف رسول الله ﷺ بالضياء والنور، فيقول حسان في معرض حديثه عن غزوة بدر:

فينـــا الرســـولُ وفينـــا الحـــقُّ نتْبعـــهُ حـــتى الممـــاتِ، ونصـــرٌ غـــيرُ محـــدودِ
وافٍ، ومـــاضٍ، شـــهابٌ يستضـــاءُ بـــهِ بـــدرٌ أنـــارَ علـــى كـــلّ الأماجيـــدِ
مُبَـــارَكٌ، كضِـــيَاءِ البَـــدْرِ صُـــورَتُهُ مـــا قَـــالَ كـــان قَضَـــاءً غيْـــرَ مَـــرْدُودِ[24]

في هذه الأبيات نجد حسّان ﷺ مدحه يصف جماله الرسولﷺ الظاهر والباطن، فهو كالبدر المنير في جمال الطلعة وحسن المحيّا، واستدارة الوجه.

وقد تدفقت ألفاظ البياض في هذه الأبيات مثل: (شهاب، يستضاء، بدر، أنار، ضياء، البدر)، وهذا التكرار منح الصورة زخمًا لونيًّا جميلًا.

ويستمر حسّان ﷺ في وصف الرسول ﷺ بالبياض، وذلك حين يشبهه بالقمر المنير الأبيض حين أتى لحرب بني قريظة، فقال:

غـــــداةَ أتـــــاهمُ يهـــــوي إلـــــيهمْ رســـــولُ اللهِ كـــــالقمرِ المنـــــيرِ[25]

ومع وصفه بالبياض نراه يشبّهه بالهلال في موطن آخر، ويشرك أيضًا حاسة الشم فيقول:

مِثـــلَ الهِـــلالِ مُبارَكًـــا، ذا رَحمـــةٍ سَمْـــحَ الخَليقـــةِ ، طَيّـــبَ الأعْـــوَادِ[26]

وشعراء الصحابة ـ لمحبتهم لرسولهم الكريم ـ لم يقتصروا في وصفه بالبياض لعمومه، بل منحوه هذا النور والبياض في أعضاء خاصة فيه، وممن أبدع في ذلك كعب بن مالك في وصفه للسان النبيﷺ، فقد وصفه بالأزهر وهو لفظ يدلّ على حسن وبياض وضياء وصفاء:

وَمَـــوَاعِظٌ مِـــنْ رَبّنَـــا نُهْـــدَى بِهَـــا بِلِسَـــانِ أَزْهَـــرَ طَيّـــبِ الْأَثْـــوَابِ[27]

ولم يقتصر شعراء الصحابة رضوان الله عليهم في توظيف اللون الأبيض بما فيه من الجمال والطهر والنقاء في مدحهم للنبي ﷺ، بل وصفوا الصحابة بالبياض، فنجد في قصيدة لحمزة بن عبد المطلب ﷺ يصف غزوة بدر، ويمدح الصحابة فيها بهذا اللون فقال:

فَكَـــانُوا غَـــدَاةَ الْبِئْـــرِ أَلْفًـــا وَجَمْعُنَـــا ثَـــلَاثُ مِئِـــينٍ كَالْمُسَـــدَّمَةِ الزّهْـــرِ[28]

فقد وصف الصحابة بجمال الباطن الظاهر، فأما جمال الباطن وهي الشجاعة الفائقة والنشاط في الحرب، فعبر عن ذلك بقوله "المسدمة" وهو البعير الهائج الذي يقيّد إذا هاج فيرعى حوالي الدار، وإن صال جعل له لجام يمنعه عن فتح فمه[29]، كما وصفهم بجمال الظاهر فجعلهم زهرًا وهو الأبيض العتيق البياض، وهو أحسن البياض كأنّ له بريقًا ونورًا يزهر.

وبنحو هذا الوصف بالبياض الأزهر وصفت هِنْدُ بِنْتِ أُثَاثَةَ بْنِ عَبّادِ بْنِ الْمُطّلِبِ الصحابة الهاشميين في بدر

في شعرها الذي أجابت به هِنْدِ بِنْتِ عُتْبَة حيث قالت:

صَبّحَكَ اللّهُ غَدَاةَ الْفَجْرِ مَلْهَاشِمَيّيْنِ الطّوَالِ الزّهْرِ [30]

وأما توظيف شعراء المشركين للون الأبيض في المدح فقد كان أقل بكثير من المسلمين، ومما ورد منه مدح ابن الزبعرى لعُيينة بن حصن الفزاري وهو قائد غطفان في يوم الخندق، وأبي سفيان بن صخر بن حرب قائد قريش، حيث جعل منهما بدرين أبيضين، وجعلهما قبلةً للفقراء الجياع، وملجأ للهاربين من الفتن حيث يقول:

قرمان كالبدرين أصبح فيهما غيث الفقير ومعقل الهراب [31]

المحور الثالث: الرثاء: يرتبط اللون الأسود غالبًا بالظلمة والسواد والكآبة، وعند تأمل اللون الأبيض في المساجلات بين المسلمين والمشركين نجد الشعراء في العهد النبوي وصفوا قتلاهم في مراثيهم بالبياض، وهذا أدّى بهم ذلك إلى أن يحتل اللون الأبيض في الرثاء مساحة شاسعة، فنقلوا الرثاء من طبيعته السوداوية.

وقد كان للون الأبيض في رثاء شعراء المشركين لقتلاهم حضور أكثر من شعراء الصحابةﷺ، فهذا عبد الله بن الزبعرى يبدأ مرثيته في قتلى المشركين ببدر بالتأكيد على وصفهم ببياض الوجوه كناية عن كرم أصلهم، وحسن فعالهم، فيقول:

مَاذَا عَلَى بَدْرٍ وَمَاذَا حَوْلَهُ مِنْ فِتْيَةٍ بِيضِ الْوُجُوهِ كِرَامِ

تَرَكُوا نُبَيْهًا خَلْفَهُمْ وَمُنَبّهًا وَابْنَيْ رَبِيعَةَ خَيْرَ خَصْمٍ فِئَام

وَالْحَارِثَ الْفَيّاضَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ كَالْبَدْرِ جَلّى لَيْلَةَ الْإِظْلَامِ [32]

فقوله بيض الوجوه كناية عن حسن الخلق، كما أراد أن يضيف إلى صفة الكرم التي يحملها لفظ (الفيَّاض) لمعان الوجه وبريقه بتشبيهه بالبدر لحظة بزوغه في ليلة مظلمة، فالتشبيه التمثيلي يكمن في صورة المشبه به التي هي هيئة تجلّي البدر في الليلة المظلمة.

وقد كنى أكثر من عاصروه عن حسن الخلق ببياض الوجه، كقول أمية بن الصلت يرثي قتلاهم ببدر:

مِنْ كُلّ بِطْرِيقٍ لِبِطْرِيقٍ نَقِيّ اللّوْنِ وَاضِحْ [33]

وبنحو هذا الوصف بالبياض لقتلى المشركين في بدر قال كعب بن الأشرف يرثيهم:

كَمْ قَدْ أُصِيبَ بِهِ مِنْ أَبْيَضَ مَاجِدٍ ذِي بَهْجَةٍ يَأْوِي إِلَيْهِ الضّيّعُ [34]

أما توظيف الصحابة لهذا اللون في مراثيهم فكقول حسّان بن ثابت يرثي سيّد الشهداء حمزة ﷺ:

أبيضَ في الذروةِ من هاشمٍ لمْ يَمرِ دونَ الحقّ بالباطِلِ [35]

فمنزلة حمزة ﷺ في قومه أعلى المنازل، ووصفه بالبياض كناية عن كرم أصله، ونزاهة شرفه، وحسن فعاله، وعلو منزلته.

المحور الرابع: الغزل: بالرغم من انصراف الصحابة عن الغزل في شعرهم عمومًا وفي مساجلاتهم على وجه الخصوص، إلا أنه قد وردت لبعضهم مقدمات غزلية قصيرة؛ إذ يبدأ الشاعر قصيدته بالمطلع الجاهلي المعهود فيقف على الأطلال أو يبدأ بالنسيب؛ تأسيًا بما شاع قديمًا من البداءة به.

وقد كان للون الأبيض حضور في هذه المقدمات الطللية والغزلية ذلك أن"البياض صفة محبّبة في المرأة أُغرم الشّعراء بوصفها، ولذا نرى أكثر صورهم يتألّق فيها اللون الأبيض"[36]، فمن ذلك قول حسان ﷺ:

هَـــلْ رسْـــمُ دارســـةِ المقـــامِ، يبـــابِ مـــــــتكلمٌ لمحـــــــاورٍ بجـــــــوابِ
ولَقَـــدْ رَأَيْـــتُ بِهَـــا الحُلـــولَ يَـــزِينُهُمْ بِـــيضُ الوُجُـــوهِ ثَوَاقِـــبُ الأحْسَـــابِ
فـــدعِ الـــديارَ وذكـــرَ كـــلّ خريـــدةٍ بَيْضَـــاءَ، آنِسَـــةِ الحـــدِيثِ، كَعَـــابِ[37]

فهذه المقدمة الغزلية التي يرد بها حسان على ابن الزبعرى فيما حصل في غزوة الخندق يلونها حسان باللون الأبيض، فحسان من شدّة ولعه بالأبيض أورده وصفاً للمحبوبة في هذا البيت مرّتين، الأولى وصف لأهل محبوبته ببيض الوجوه، إشارة إلى حسنهم وعلو نسبهم وكرم أصلهم، والثانية وصف به محبوبته، وهو يشير بهذا الوصف أنها من الحرائر العفيفات، وليست من الإماء، اللواتي يتعرضن للشمس في حال الخدمة، فالمرأة المفضلة عنده ـ إضافة إلى لونها ـ تكون من عِلية القوم.

وهكذا نجد حسان في المطلع الغزلي لقصيدته التي رثى بها قتلى أحد يؤكد على وصفها بالبياض حين يشبهها بالشمس إشراقًا وتجلّيًا، ولذا يقول في:

لمْ تفقهـــا شمـــسُ النهـــارِ بشـــيءٍ غـــيرَ أنّ الشـــبابَ لـــيسَ يـــدومُ[38]

وحسّان في مقدمتيه هاتين سرعان ما يترك الغزل، لينتقل إلى حمد الله بنصر المؤمنين في غزوة الخندق في الأبيات الأولى، وينتقل أيضًا بعد البيت الأخير ليرثي شهداء أحد.

أما شعراء المشركين فلم يوظفوا اللون الأبيض في الغزل؛ فبالرغم من ابتداء بعض قصائدهم بالمقدمة الغزلية لكن اللون الأبيض لم يبرز فيها.

المبحث الثالث: اللون الأسود:

يعد اللون الأسود امتصاصًا لكل الألوان، فالأسود هو "لا لون إن صحّ التعبير، أو هو امتصاص كل ألوان الطيف، أو هو غيبة كل الألوان، فالألوان القاتمة وعلى رأسها الأسود تمتص الضوء والحرارة، والضوء ما هو إلا ألوان"[39].

وقد ورد اللون الأسود في القرآن الكريم بعد الأبيض؛ إذ ورد ثماني مرات في سبع آيات، بصيغ مختلفة[40].

وعند تأمل شعر المساجلات في العهد النبوي نجد اللون الأسود جاء بعد الأبيض كثرة واستعمالًا، وهو بهذا يتناسب مع وروده في الشعر الجاهلي، ولهذا نجده قد ورد بشكل كبير في شعر الصحابة، وارتبط وروده بأغراض الوصف والرثاء والهجاء، أما شعراء المشركين فلم يوظفوا اللون الأسود إلا في مواضع قليلة جدًا.

المحور الأول: الوصف: استعمل شعراء الصحابة اللون الأسود في مواضع منها: وصف الجاهلية، ووصف العتاد الحربي، وكذلك في بعض المقدمات الطللية.

وعند تأمل شعر الصحابة في توظيف اللون الأسود نجد كعب بن مالكﷺ أكثر الشعراء توظيفًا له، فقد شبّه حالتهم في الجاهلية وما هم عليه من الشرك والظلم والجهل بالظلام الدامس، وذلك في حديثه عن غزوة بدر:

وَرَدْنَـــاهُ بِنُـــورِ اللّـــهِ يَجْلُـــو دُجَـــى الظّلْمَـــاءِ عَنّـــا وَالْغِطَـــاءِ[41]

وقد أكّد كعب صفة السواد القاتم بلفظين سوداوين هما: (دجى والظلماء)؛ لأنّ ما كانوا عليه في الجاهلية هو غاية الجهل والظلم فلم يكتف الشاعر بذكر السواد مرة واحدة، وهو في هذا يسترشد بالقرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وأما الموضع الثاني فهو جعل اللون الأسود وصفًا لعدة حربهم من الخيول والجمال والسلاح، ووصف الحرب وعنفها، فمن جميل وصفهم لعدة الحرب باللون الأسود قول كعب بن مالك ﷺ في يوم الخندق:

نَلْقَـــى الْعَـــدُوّ بِفَخْمَـــةٍ مَلْمُومَـــةٍ تَنْفِـــي الْجُمُـــوعَ كَفَصْـــدِ رَأْسِ الْمَشْـــرِقِ[42]
وَنُعِـــدّ لِلْأَعْـــدَاءِ كُـــلّ مُقَلّـــصٍ وَرْدٍ وَمَحْجُـــولِ الْقَـــوَائِمِ أَبْلَـــقِ[43]
تُـــرْدِى بِفُرْسَـــانٍ كَـــأَنّ كُمَـــاتَهُمْ عِنْـــدَ الْهِيَـــاجِ أُسُـــودُ طَـــلّ مُلْثِـــقِ[44]
صُـــدَقٌ يُعَـــاطُونَ الْكُمَـــاةَ حُتُـــوفَهُمْ تَحْـــتَ الْعِمَايَـــةِ بِالْوَشِـــيجِ الْمُزْهِـــقِ[45]

شكّل السواد في هذه اللوحة زخمًا لونيًا بكثرة مفرداته؛ ليتناسب ذلك مع الحرب والموت وتخويف الأعداء، فجعل كتيبتهم سوداء مظلمة؛ لكثرة من فيها من المقاتلين، ثم التفت إلى خيلهم، وبريشته البديعة أضفى عليها

من الألوان، فجعل منها "الورد" وهو ما كان لونه محمرًا كالورد، وكذلك الأبلق وهو قريب من السواد، وجعلها محجّلة وهو بياض يكون في قوائم الفرس[46]، وكلّها ألوان مرغوبة في الخيل، ثم استمر في تلوينه حيث غطّى مكان المعركة باللون الأسود القاتم بسبب النقع.

كما يجعل كعب بن مالك ﷺ اللون الأسود وصفًا لعتاد الصحابة للحروب من الرجال والإبل في قوله:

وَأَبْقَـــتْ لَنَـــا جَلَمـــات الْحُـــرُو ... بِ مِمّـــنْ نُـــوَازِي لَـــدُنْ أَنْ بُرِينَـــا[47]
مَعَـــاطِنَ تَهْـــوِي إِلَيْهَـــا الْحُقُـــو ... قُ يَحْسِـــبُهَا مَـــنْ رَآهَـــا الْفَتِينَـــا[48]
تُخَـــيّسُ فِيهَـــا عِتَـــاقُ الْجِمَـــا ... لِ صُـــحْمًا دَوَاجِـــن حُمْـــرًا وُجُونَـــا[49]
وَدُفّـــاعُ رَجْـــلٍ كَمَـــوْجِ الْفُـــرَا ... تِ يَقْـــدُمُ جَـــأْوَاءِ جُـــولًا طَحُونَـــا[50]
تَـــرَى لَوْنَهَـــا مِثْـــلَ لَـــوْنِ النّجُـــو ... مِ رَجْرَاجَـــةً تُـــبْرِقُ النّاظِرِينَـــا[51]

فهذه القصيدة جزء من قصيدته التي قالها في غزوة أحد، وفيها حصل للصحابة همّ وحزن لما أصابهم، وهذا بدوره أثّر على نفسيّات شعرائهم، فكعب بن مالك لما أراد أن يبين ما أبقته الوقائع والحروب مما يتّقون به أعداءهم، استولت عليه النظرة السوداوية، فأخذ بريشته يلوّن الإبل ومباركها، فجعل مباركها سودًا كالحرّة، وزاد من اسوادها لون الإبل التي تبرك فيها، فألوانها سوداء أو حمراء، وهما لونان فيهما من القتمة والجهمة، ثم عرّج في البيت قبل الأخير لذكر كثرة أعداد الصحابة في المعارك ومحبّتهم للشهادة، فجعلهم ينطلقون في الحروب كما يتدافع موج الفرات، في كتائب سوداء إشارة إلى كثرة الرجال والرماح فيها، لا يوجد لون غير السواد سوى لون السيوف والدروع التي يلمع بياض حديدها ورونقها كالبرق في الليلة المظلمة.

ونجد كعبًا مولعًا باللون الأسود في هذا الموضع حين يعيده في قصيدة له في غزوة الخندق:

أَبْقَـــى لَنَـــا حَـــدَثُ الْحُـــرُوبِ بَقِيّـــةً ... مِـــنْ خَـــيْرِ نِخْلَـــةِ رَبّنَـــا الْوَهّـــابِ[52]
بَيْضَـــاءَ مُشْـــرِفَةَ الـــذّرَى وَمَعَاطِنًـــا ... حُـــمّ الْجُـــذُوعِ غَزِيـــرَةُ الْأَحْـــلَابِ[53]
كَـــاللّوبِ يُبْـــذَلُ جَمّهَـــا وَحَفِيلُهَـــا ... لِلْجَـــارِ وَابْـــنِ الْعَـــمّ وَالْمُنْتَـــابِ[54]

فقد جعل كعب لون جماله سوداء اللون كالحرة السوداء ـ وكانت في المدينة حرتان ـ، وهو من الألوان المرغوبة في الإبل لدى العرب، إضافة لكثرة حلبها ودرّها، ثم انتقل لذكر عددهم وعدّتهم في الحرب مستخدمًا الريشة نفسها بألوانها مع تغليب السواد، فقال:

وَأَغَـــــــرّ أَزْرَقَ فِي الْقَنَـــــــاةِ كَأَنّـــــــهُ ... فِي طُخْيَـــــةِ الظّلْمَـــــاءِ ضَـــــوْءُ شِـــــهَابِ[55]
وَكَتِيبَـــــــةٍ يَنْفِـــــي الْقِـــــرَانَ قَتِيرُهَـــــا ... وَتَـــــرُدّ حَـــــدّ قَوَاحِـــــذِ النّشّـــــابِ[56]
جَـــــأْوَى مُلَمْلَمَـــــةً كَـــــأَنّ رِمَاحَهَـــــا ... فِي كُـــــلّ مَجْمَعَـــــةٍ ضَـــــرِيمَةُ غَـــــابِ[57]
يَـــــأْوِي إِلَى ظِـــــلّ اللّـــــوَاءِ كَأَنّـــــهُ ... فِي صَـــــعْدَةِ الْخَطّـــــيّ فَيْءُ عُقّـــــابِ[58]

فقد مزج الشاعر في أبياته ألوانًا ثلاثة ليشكّل لوحة جميلة؛ أولها اللون الأزرق: وهو لون السنان الحاد المدبب في طرف الرمح، وفي حال انطلاقه في نحور الأعداء في سواد النقع يبدو كأنه شهاب ثاقب ساقط في الليلة المظلمة، فاستحال لونه إلى أبيض ساطع لامع، كما يبرز اللون الأبيض في ما على الجيش من الدروع السابغة البيضاء المحكمة النسيج، واللون الثالث هو السواد البارز في الظلمة الحاصلة من غبار المعركة، والبارز أيضًا في اجتماع المجاهدين وكثرة رماحهم التي صارت كأنها غابة سوداء.

والموضع الثالث من توظيف الصحابة للسواد في الوصف فهو المقدمة الطللية كما نجد ذلك في القصيدة التي رثى بها حسّان ﷺ شهداء أحد، حيث نراه يشبه موقد النار وهي الأثافي بالحمام بلونه الأسود الباهت، ولذا قال:

فلـــــمْ يبـــــقَ إلا موقـــــدُ النـــــارِ حولـــــهُ ... رواكـــــدُ، أمثـــــالُ الحمـــــام، وقـــــوعُ[59]

وقد أبدع حسان في اختيار كلمي "رواكد، ووقوع" وصفاً للحمام، فإنَّها تعني أنَّه قد دبّ فيها الفناء من طول ما تُركت.

المحور الثاني: الهجاء: وظّف شعراء الصحابة اللون الأسود في معرض الهجاء، ولذا يعيّر الشعراء خصومهم باللون الأسود، وذلك بوضع المهجو في صورة مشوّهة ساخرًا منه، فهم يظهرونه بصورة بشعة تشمئزّ منها النفوس، وقد استعملت العرب لفظ السواد للدلالة على العداوة والأعداء، كقولهم سود الأكباد للدلالة على الحقد والكراهية[60]،ولما رثى كعب بن مالك حمزة ﷺ هجا قاتله وحشي بقوله:

كَحَمْـــــــزَةَ لَمّـــــــا وَفَى صَـــــــادِقًا ... بِـــــذِي هَبّـــــةٍ صَـــــارِمٍ سَـــــلْجَجِ[61]
فَلَاقَـــــاهُ عَبْـــــدُ بَـــــنِي نَوْفَـــــلٍ ... يُبَرْبِـــــرُ كَالْجَمَـــــلِ الْأَدْعَـــــجِ[62]

فقد أبرز صورة وحشي بصورة مشوهة قبيحة في لونه وصوته، حيث أظهر الشاعر فيها قدرة على تصوير بشاعة المهجو، فوصفه بالصوت القبيح غير المفهوم، واللون الأسود ليبين شدة همجية وحشي ومدى حقده وكرهه لحمزة ﷺ.

وحين هجا حسان بن ثابت ﷺ المشركين وظف اللون الأسود فقال:

وإنْ نَلْـقَ قَـيْسَ بـنَ امـرِىء القـيسِ بعـدَه نَـزِدْ في سَـوَادِ وجهِـهِ لَـوْنَ حالـكِ[63]

فقد هجا قيس بسواد وجهه دلالة معبّرة عما يعانيه من الكآبة والهم وما في قلبه من الحقد وما في ظاهره من التشويه والسوء، ويخبر أنهم لو التقوا به في الحرب لرأى ما يسوؤه ويزيد من قبحه قبحًا ومن سواده اسودادًا.

ويقول عبد الله بن رواحة ﷺ في هجائه لأبي سفيان:

فَـأَبْلِغْ أَبَـا سُـفْيَانَ إمّـا لَقِيتَـه لَـئِنْ أَنْـتَ لَمْ تُخْلِـصْ سُـجُودًا وَتُسْـلِمِ

فَأَبْشِـرْ بِخِـزْيٍ فِي الْحَيَـاةِ مُعَجّـلٍ وَسِـرْبَالِ قَـارٍ خَالِـدًا فِي جَهَـنّمِ[64]

يهدّد ابن رواحة زعيم المشركين ـ آنذاك ـ أبا سفيان بأنه إن لم يتّبع الهدى ودين الحق فليبشر بما يسوؤه في الدنيا من الخزي والذل والعار، وبما يكون وبالًا عليه من العذاب الدائم في جهنم، إذ يزاد في عذابه بأن يلبس القار، والقار شيء أسود تطلى به الإبل والسفن[65]، وفي بيته تناص ظاهر مع قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾[إبراهيم: ٤٩ – ٥٠]، ولقد كان عبد الله بن رواحة مقتبسًا أكثر شعره ومنه هجاؤه من القرآن الكريم، فقد هجا المشركين "ثلاثة من الأنصار حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر، فكان في ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة"[66].

وأما شعراء المشركين فقد اختفى اللون الأسود في معرض هجائهم للمسلمين.

المحور الثالث: الرثاء: اقترن اللون الأسود بالحزن والكآبة والموت؛ ولذا كان من الطبيعي أن يرتبط بغرض الرثاء، وقد وظّف المشركون اللون الأسود في الرثاء وإن كان وروده قليلًا في شعرهم، فهذا ضِرَارُ بْنُ الْخَطّابِ الْفِهْرِيّ يَرْثِي أَبَا جَهْلٍ، ويبدأ رثاءه بتغليب السواد فيقول:

أَلَا مَـنْ لَعَـيْنٍ بَاتَـتْ اللّيْـلَ لَمْ تَـنَمْ تُرَاقِـبُ نَجْمًـا فِي سَـوَادٍ مِـنْ الظّلَـمْ[67]

أما توظيف الصحابة للون الأسود فكان قليلًا أيضًا، ومن ذلك رثاء حسان لحمزة ﷺ حين قال:

أظْلَمَـتِ الأرْضُ لفِقْدَانِـهِ واسـودَّ نـورُ القمـرِ الناصـلِ[68]

فقد شمل الحزن لفقد حمزة ﷺ حتى الجماد، فالشاعر جعل الأرض تشاركه الأحزان والهموم، ولذا لبست

الأرض ثوب الحداد الأسود، ولم يعد للقمر نور بل اسود وأظلم، إشارة منه إلى علو مكانة حمزة، وعظم المصاب لفقده.

المبحث الرابع: اللون الأخضر والأحمر والأصفر والأزرق:

أما **اللون الأحمر**: فقد ورد في القرآن بلفظه مرة واحدة، وهو يرمز للإثارة، ويعبّر عن العاطفة؛ إذ هو لون الدم المعبّر عن النشاط والحيوية، أو عن الخوف والخطر، ولذا قالوا: موت أحمر للدلالة على هول الموقف وشدته.

وقد وظف شعراء المشركين اللون الأحمر في الفخر بتخضيب سيوفهم بدماء أعدائهم كما قال ضرار:

وَذَلِـــــكَ أَنّـــــا لَا تَـــــزَالُ سُـــــيُوفُنَا بِهِـــــنّ دَمٌ مِمّـــــنْ يُحَـــــارِبْنَ مَـــــائِرُ [69]

كما جعل ضرار بن الخطاب خيله تخوض في دماء المسلمين يوم أحد دلالة على كثرة من قتلوا:

أَكْرَهْـــتُ مُهْـــرِي حَـــتّى خَـــاضَ غَمْـــرَتَهُمْ وَبَلّـــهُ مِـــنْ نَجِيـــعِ عَانِـــكٍ عَلَـــقُ [70]

أما سماك اليهودي فعندما رثى كعب بن الأشرف شبه سيلان دمه بالزعفران حين قال:

فَغَـــادَرَهُ كَـــأَنّ دَمًـــا نَجِيعًـــا يَسِـــيلُ عَلَـــى مَدَارِعِـــهِ عَبِـــيرُ [71]

وأما ورود اللون الأحمر في شعر الصحابة ﷺ فقد جاء مقترنًا بالمعارك وسيلان الدماء، مرتبطًا بغرض الفخر وإظهارًا للشجاعة والاستهانة بالموت، ومبرزًا شدّة الوقيعة على الكفار، ومستشفيًا من قتلهم.

فمن توظيفهم للون الأحمر لبيان كثرة قتلى العدو، قول حسان ﷺ في بني قريظة:

تَرَكْنَـــاهُمْ ومَـــا ظَفِـــرُوا بِشَـــيءٍ دمـــاؤهمُ علـــيهمْ كـــالعبيرِ [72]

فقد سالت دماء بني قريظة جزاءً لغدرهم كالزعفران المصفر، ولكن لما كانت الوقيعة على الكافرين في بدر أشد، حيث شفى الله بها صدور قوم مؤمنين، فقد رسم حسان لوحة أخرى جعلها بريشته أشد سوادًا، مما يدل على أنه يوظف اللون في شعره بوعي واقتدار فني، فقال:

فَلـــو أنّ أشْـــياخًا بِبَـــدْرٍ شُـــهُودُه لَبَـــلّ مُتـــونَ الخَيْـــلِ مُعْتَـــبَطٌ وَرْدُ [73]

وورد **اللون الأخضر** في القرآن الكريم ثماني مرات في ثمانية مواضع بصيغ مختلفة، وهو راحة للنفس والعين ورمز للحياة، ولذا فهو يثير في الإنسان علامات البهجة، ويجلب السرور.

وهذا اللون كان له حضور في مساجلات الصحابة فيصفون جيشهم بالخضرة، ولذا يقولون: "كتيبة خضراء، إذا عليها لبس الحديد، شبه سواده بالخضرة، والعرب تطلق الخضرة على السواد"[74]، ومن هذا قول حسان في غزوة بدر:

لَمّـــــا رَأَى بَـــــدْرًا تَسِـــــيلُ جِلَاهُـــــهُ بِكَتِيبَـــــةٍ خَضْـــــرَاءَ مِـــــنْ بَلْحَـــــزْرَجِ[75]

وكذلك قول بجير بن زهير بن أبي سلمى:

تَرْتَـــــدّ حَسْـــــرَانًا إِلَى رَجْرَاجَـــــةٍ شَـــــهْبَاءَ تَلْمَـــــعُ بِالْمَنَايَـــــا فَيْلَـــــقِ[76]

مَلْمُومَـــــةٍ خَضْـــــرَاءَ لَـــــوْ قَـــــذَفُوا بِهَـــــا حَضَـــــنًا لَظَـــــلّ كَأَنّـــــهُ لَمْ يُخْلَـــــقِ[77]

فاللون الأخضر في المقطعين لا يقصد به ما تقدم من الراحة ويرمز للحياة، إنما يعني كثرة الجيش وكثرة عتادهم حتى يُرى من بعيد أسودًا مدلهمًّا مخيفًا.

كما يرد اللون الأخضر ليدل على البهجة والنعيم وانشراح الصدر، حين يُذكر فيما أعد الله في الجنة للشهداء من الحدائق الخضراء، حيث يقول حسان في رثائه لجعفر بن أبي طالب ﷺ:

فَصَـــــارَ مَـــــعَ الْمُسْتَشْـــــهَدِينَ ثَوَابَـــــهُ جِنَـــــانٌ وَمُلْتَـــــفّ الْحَـــــدَائِقِ أَخْضَـــــرُ[78]

وهذا اللون الأخضر لم يوظفه شعراء المشركين في مساجلاتهم مع المسلمين.

ويرد اللون الأخضر أخيرًا في هجائهم لأعدائهم وفخرهم عليهم بسواد جلودهم، مما يدل على أنهم عرب خلّص، ومن ذلك قول حسان في هجائه لرجل من بني تيم بأنه ليس من نسل العرب، فيقول:

أَوْ فِي الســـــرارةِ مِـــــن تَـــــيْمٍ، رَضِـــــيتُ بِهِـــــمْ أَوْ مِـــــن بَـــــنِي خلـــــفِ الخضـــــرِ الجلاعيـــــدِ[79]

أما **اللون الأصفر**: فقد ورد في القرآن الكريم خمس مرات، ويحمل دلالات متنوعة كالسرور والبهجة حينًا، والخوف والمرض حينًا آخر، وبالرغم من ذلك فهو أقل الألوان ورودًا في شعر الصحابة.

ومن أمثلة وروده في شعرهم قول كعب بن مالك ﷺ في غزوة الخندق وما أعده الصحابة من العدد والعدة لملاقاة عدوهم:

نُصَـــــبّحُكُمْ بِكُـــــلّ أَخِـــــي حُـــــرُوبٍ وَكُـــــلّ مُطَهّـــــمٍ سَـــــلِسِ الْقِيَـــــادِ[80]

وَكُـــــلّ طِمِـــــرّةٍ خَفِـــــقٌ حَشَـــــاهَا تَـــــدِفّ دَفِيـــــفَ صَـــــفْرَاءِ الْجَـــــرَادِ[81]

فخيولهم في غاية السرعة حتى إنها تطير مصدرة أصواتًا كالجراد المصفر الشديد الطيران.

ومن الألوان التي وظفها المشركون في مساجلاتهم مع المسلمين **اللون الأزرق** الذي وصفوا به دروعهم حين شبعوها بلون السماء إيحاءً بجمالها وحسن سبكها، كما قال عَبْدِ يَالَيْل بْنِ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ حين رد على كعب بن مالك في غزوة الطائف:

عَلَيْنَـــــا دِلَاصٌ مِـــــنْ تُـــــرَاثِ مُحَـــــرّقٍ كَلَـــــوْنِ السّـــــمَاءِ زَيّنَتْهَـــــا نُجُومُهَـــــا[82]

وقد تبيّن لنا من خلال هذه السياحة في شعر المساجلات في العهد النبوي أن الطرفين قد أبدعوا في توظيف الألوان في مساجلاتهم، وكانت دلالاتها متنوعة تتلاءم مع رغبة الشاعر في جلاء مشاعره ومقاصده من الكلام، وأدّت الغرض المطلوب دون عناء أو تكلف.

النتائج:

1. تعد الألوان نتيجة فلسفة جمالية خاصة بها، فهي أقرب المحسوسات للحواس التي ينعم بها الإنسان، وقد ابدع شعراء الصحابة والمشركين في تشكيل الصورة الحسية البصرية في مساجلاتهم الشعرية بتوظيف الألوان توظيفًا يدل على بصيرة نافذة وعاطفة صادقة.

2. عند تأمل شعر المساجلات في العهد النبوي نجد شعراء الطرفين وظفوا الألوان في شعرهم وتفاوتت درجات اللون عندهم بما يعطي جمالًا في الصورة الفنية .

3. عند تأمل شعر المساجلات في العهد النبوي نجد اللون الأبيض يحتل مساحة شاسعة في شعر الفريقين فقد استعمل البياض في شعرهم إيحاءً وتصريحًا، وأكثر شعراء الصحابة من توظيف اللون الأبيض في مدحهم للنبي ﷺ وللصحابة رضي الله عنهم، لكن قلّ توظيفهم له في رثائهم، أما شعراء المشركين فقد قل توظيف اللون الأبيض في مدحهم لكن برز هذا اللون أكثر في رثائهم.

4. أبدع شعراء المشركين في توظيف اللون الأبيض في وصفهم لعتادهم الحربي، بل وازداد بياضًا بما زينوه به من أنواع الصور البيانية، واستعمل شعراء الصحابة هذا اللون في وصفهم للغزوات والسرايا؛ فوصفوا به وجوه الصحابة في الحرب، وأكثروا من تلوين السيوف والدروع به، وشمل أيضًا وصف المرأة في المقدمات الغزلية لبعض قصائد الصحبة فقط.

5. أما اللون الأسود فلم يرد اللون الأسود عند شعراء المشركين إلا في حدود ضيقة في غرض الرثاء، أما شعراء الصحابة فقد ظهر جليًا في ثلاثة موضع هي: وصفهم لحالتهم في الجاهلية، ونعت عدة حروبهم من الخيول والجمال والسلاح، ووصف عنف الحرب وشدتها، كما ارتبط أيضًا بغرض الهجاء في شعرهم ، ووظف الطرفان اللون الأسود في الرثاء.

6. استعمل الصحابة في شعرهم اللون الأخضر مرادفًا للأسود في وصفهم للجيش، ويرِدُ ليدل على ما أعده الله للشهداء في الجنة من الحدائق الخضراء، وللفخر بسواد جلودهم، ولم يكن لهذا اللون ورود عند شعراء المشركين إطلاقًا.

7. اقترن ورود اللون الأحمر في شعر الصحابة والمشركين بالمعارك وسيلان الدماء؛ إظهارًا لشجاعتهم، واستهانتهم بالموت وقد أكثر منه شعراء المشركين.

8. وقد وظف شعراء الصحابة اللون الأصفر في وصف خيولهم، ووظّف المشركون الأزرق في نعت دروعهم.

الهوامش:

(1) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، مادة (لون) 223/5، ولسان العرب، لابن منظور، مادة (لون) 367/12.

(2) سايكولوجية إدراك اللون والشكل، قاسم حسين صالح، 113 .

(3) الألوان في القرآن، عبد المنعم الهاشمي، 22 .

(4) اللون في الشعر العربي القديم، زينب العمري، 5 .

(5) الأداء باللون في الشعر الجاهلي أربعة شعراء أنموذجا، رعد عبد الجبار، 166، وينظر فقه اللغة وأسرار العربية، الثعالبي، 107.

(6)من سمات الجمال في القرآن الكريم الألوان ودلالاتها نموذجًا، عفاف عبد الغفور حميد.

(7) الألوان في القرآن، عبد المنعم الهاشمي، 21.

(8) من سمات الجمال في القرآن الكريم الألوان ودلالاتها نموذجًا، عفاف عبد الغفور حميد.

(9) السيرة النبوية، ابن هشام، 145/2.

(10) ديوان عبدالله بن الزبعرى، ص31.

(11) السيرة النبوية، ابن هشام، 36/2.

(12) المصدر السابق،130/2، الفلق: القطع، قيض ربد: بيض نعام، الأداحي: موضع بيض النعام.

(13) المصدر السابق،255/2، العقيقة: السحابة.

(14) ديوان عبدالله بن الزبعرى، ص38.

(15) ديوان حسان بن ثابت،215.

(16) المصدر السابق،215، مغرف: الغريف: الشجر الملتف، قرقف: الخمر التي تصرع صاحبها وترعده.

(17) المصدر السابق، 102.

(18) كعب بن مالك الأنصاري شاعر العقيدة الإسلامية، سامي العاني، 126.

(19) ديوان كعب بن مالك، 47، يزهيها: يحركها.

(20) المصدر السابق، 76، النهي: الغدير، القتير: مسامير الدرع، الجنادب: ذكور الجراد، الشك: إحكام نسج الدرع.

(21) المصدر السابق، 25.

(22) الحيوان، الجاحظ، 5/ 56.

(23) ديوان كعب بن مالك، 113.

(24) ديوان حسان بن ثابت، 55 ـ 56.

(25) المصدر السابق،134.

(26) المصدر السابق،56.

(27) ديوان كعب بن مالك، 28، الأزهر: الأبيض اللون.

(28) السيرة النبوية، ابن هشام، 9/2، المسدمة: الفحول من الإبل.

(29) لسان العرب، ابن منظور، مادة (سدم)،217/6.

(30) السيرة النبوية، ابن هشام، 91/2.

(31) ديوان عبدالله بن الزبعرى، ص30.

(32) المصدر السابق، ص46ـ 47.

(33) السيرة النبوية، ابن هشام، 30/2.

(34) المصدر السابق، 52/2.

(35) ديوان حسان بن ثابت،194.

(36)زيد الجهني، الصورة الفنيّة في المفضليات، ص218.

(37) ديوان حسان بن ثابت،22، يباب: خراب، خريدة: البكر التي لم تمس، الكعاب: الحسناء التي نهد ثديها.

(38) المصدر السابق، 223 .

(39) الألوان في القرآن، عبد المنعم الهاشمي، 42.

(40) جماليات الأداء باللون في القرآن الكريم، نوري كاظم الساعدي،.

(41) ديوان كعب بن مالك، 21.

(42) فحمة: سوداء، وتروى بالخاء أي كتيبة عظيمة، ملمومة: مجتمعة .

(43) مقلص: فرس خفيف .

(44) مُلْثِقِ: ما يكون في الطل من زلق وطين، والأسود أجرأ وأجوع ما تكون في ذلك الحين.

(45) ديوان كعب بن مالك، 77 ـ78، العماية: سحابة الغبار وظلمته، الوشيج: الرماح، المزهق: المذهب للنفوس.

(46) لسان العرب، ابن منظور، مادة (حجل)،65/3.

(47) جلمات: من الجلم وهو القطع، نوازي: نساوي، برينا: خلقنا.

(48) المعاطن: مواضع الإبل حول الماء، الفتين: الأراضي فيها حجارة سود، لأنها تشبه ما فتن بالنار أي أحرق.

(49) تخيس: تذلل، صحمًا: سودًا، الدواجن: المقيمة، الجون: السود.

(50) الدفاع: ما يندفع من السيل، رجل: الرجالة، جأواء: كتيبة لونها السواد من كثرة السلاح، الجول: الكتيبة الضخمة.

(51) ديوان كعب بن مالك، 101 ـ 102، الرجراجة: التي يموج بعضها في بعض، تبرق: تبهت وتحير.

(52) النحلة: العطاء.

(53) الذرى: الأعالي ويعني بها الآطام، المعاطن: مبارك الإبل عند الماء، حم: سود، الجذوع: يقصد أعناقها .

(54) ديوان كعب بن مالك، 26، اللوب: جمع لوبة وهي الحَرّة، جمّها: ما اجتمع من لبنها، المنتاب: القاصد الزائر.

(55) الأغر الأزرق: السنان، الطخية: شدّة السواد.

(56) القران: تقارن النبل واجتماعه، القتير: مسامير حلق الدرع، قواحذ النشاب: النبال التي تصيب الأفخاذ.

(57) جأوى: سوداء، ململة: مجتمعة، الضريمة: اللهب المتوقد.

(58) ديوان كعب بن مالك، 27 ـ 28، الصعدة: القناة المستوية، الخطي: الرماح، الفيء: الظل.

(59) ديوان حسان بن ثابت،157، يباب: خراب، خريدة: البكر التي لم تمس، الكعاب: الحسناء التي نهد ثديها.

(60) لسان العرب، ابن منظور، مادة (سود)،422/6.

(61) بذي هبة: سيف، صارم: قاطع، سلجج: مرهف.

(62) ديوان كعب بن مالك، 33، يبربر: يصيح، الأدعج: الأسود.

(63) ديوان حسان بن ثابت،176.

(64) ديوان عبد الله بن رواحة، 131.

(65) لسان العرب، ابن منظور، مادة (قير)،369/11.

(66) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ط2، 1958م،138/4.

(67) السيرة النبوية، ابن هشام، 27/2.

(68) ديوان حسان بن ثابت،195، الناصل: الخارج.

(69) السيرة النبوية، ابن هشام، 14/2، مائر: سائل.

(70) المصدر السابق، 146، غمرتهم: جماعتهم، نجيع: دم، عانك: أحمر، علق: من أسماء الدم.

(71) المصدر السابق، 200/2، عبير: زعفران.

(72) ديوان حسان بن ثابت، 134.

(73) المصدر السابق، 108، معتبط: الدم الطري، ورد: الدم القاني.

(74) لسان العرب، ابن منظور، مادة (خضر)،121/4.

(75) المصدر السابق، 22/2، الجلاه: ما استقبلك من حروف الوادي.

(76) حسرانا: جمع حاسر وهو من لا درع عليه، رجراجة: كتيبة ضخمة، فيلق: جيش كثير شديد.

(77) السيرة النبوية، ابن هشام، 487/2، ملمومة: مجتمعة، حضن: جبل بأعلى نجد.

(78) ديوان حسان بن ثابت، 108.

(79) المصدر السابق، 84، السرارة: أي أفاضل تيم، الخضر: أصحاب الجود والكرم، الجلاعيد: الأقوياء.

(80) مطهم: الفرس التام الخلق.

(81) ديوان كعب بن مالك، 39، صفراء الجراد: التي ألقت بيضها فهي أخف طيرانًا.

(82) السيرة النبوية، ابن هشام، 481/2، دلاص: دروع لينة.

قائمة المراجع:

القرآن الكريم

1. أبو الفرج ، علي بن الحسين الأصفهاني، الأغاني، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ط2، 1958م.

2. الثعالبي، عبد الملك بن محمد، فقه اللغة وأسرار العربية، تحقيق: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، بيروت، ط 2 ،2000م.

3. الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة الحلبي، مصر، ط 2، 1967م.
4. الجبوري، يحيى، ديوان العبّاس بن مرداس السلمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 1، 1991م.
5. الجبوري، يحيى، شعر عبد الله بن الزبعرى، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 2، 1981م.
6. الجهني، زيد بن محمد، الصورة الفنيّة في المفضليات، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السعودية، ط1 ،1425هـ.
7. جواد، رعد عبد الجبار، الأداء باللون في الشعر الجاهلي أربعة شعراء أنموذجا، بحث منشور في مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة الأنبار، مجلد21، عدد88، 2015م.
8. حميد، عفاف عبد الغفور، من سمات الجمال في القرآن الكريم الألوان ودلالاتها نموذجًا، بحث منشور في المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، مجلد5، عدد4، 2009م.
9. ابن رشيق، العمدة، ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط 5، 1981م.
10. الساعدي، نوري كاظم، جماليات الأداء باللون في القرآن الكريم، بحث منشور في مجلة كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، مجلد 20، عدد 1، 2009م.
11. السكري، أبو سعيد بن الحسن، شرح ديوان كعب بن زهير، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط2، 2002م.
12. صالح، قاسم حسين، سايكولوجية إدراك اللون والشكل، دار الرشيد للنشر، بغداد، العراق، 1982م.
13. طراد، مجيد، ديوان كعب بن مالك الأنصاري، دار صادر، بيروت، لبنان، ط 1، 1997م.
14. العاني، سامي، كعب بن مالك الأنصاري شاعر العقيدة الإسلامية، دار القلم، دمشق الأردن، ط 2، 1990م.
15. العمري، زينب، اللون في الشعر العربي القديم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط1، 1989م.
16. ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، د ط،1979م.
17. قصّاب، وليد، ديوان عبد الله بن رواحة، دار العلوم، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط 1 ، 1981م.
18. ابن قتيبة الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، مصر، د ط، د ت.
19. الهاشمي، عبد المنعم، الألوان في القرآن، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط 1، 1990م.
20. مهنّا، عبدأ، ديوان حسان بن ثابت، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 2، 1994م.
21. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، تحقيق: أمين عبد الوهاب ومحمد العبيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط 3، 1999م.
22. الهاشمي، عبد المنعم، الألوان في القرآن، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط 1، 1990.
23. ابن هشام، عبد الملك، السيرة النبوية، دار المنار، القاهرة، مصر، د ط، 1990م.